هدية عيد الميلاد

بلغتْ اليوم الثالثة عشر عاماً من عمرها، في أعماقها همسات مرحة تقول لها:

- أنت اليوم شابة نضرة كأزهار الربيع الفتية.

نظرت نحو نفسها في المرآة، ما زال وجهها يحمل شحوبه الحفيف، وجسدها يفتقد ذلك الاكتناز الذي تراه على فتيات أكبر منها، ولم يأخذ صدرها طريقه إلى الأعلى بعد، لكن شيئاً جميلاً في ثنايا روحها بدأ يتحرك ويداعب قلبها الصغير، فيطير منها فرحاً ونشوة. تشعر اليوم وكأنها ولِدَتْ من جديد، تتّحسّس أنوثتها بحذر، فتشعر بها أكثر من كل الأيام السابقة.

سألت نفسها :

- هل أصبحتُ شابة حقاً..؟، أي شيء هذا..؟.

لم تنتظر لتجيب نفسها أو يُهمَس الجواب بداخلها، بل ركضت نحو أمها فرحة.

- أمي اليوم عيد ميلادي.

اصطنعت الأم دهشة وكذلك فرحة، انحنت وقبلتها على خدها وجاملتها بكلمات عادية، سألتْ أمها بحماس:

- هل جلبتِ لي هدية..؟، فاليوم أصبحتُ شابة .

تمتمات مبهمة كان الجواب، واعدة ربما أو معتذرة، مسحتْ الأم على رأس ابنتها مبتسمة وقالت:

- فيما بعد، اذهبي الآن وحضري نفسك.

- لكن يا أمي.

- هيّا حتّى لا تتأخري على المدرسة كالأطفال، ألم تصبحي اليوم شابة..؟.

تذكّرتْ والدها، وتذكرته يوم قال لها:

- الإنسان في سن الثالثة عشرة يودّع الطفولة ويصبح شاباً.

سألته بفضولها آنذاك:

- ولماذا في الثالثة عشر..؟.

فمطّ شفتيه وهزّ رأسه نافياً علمه بذلك وقال:

- هكذا يقولون.

مع بزوغه في خيالها وجدتْ نفسها أمامه تخبره بفرح بأن اليوم هو عيد ميلادها، وتسأله عن الهدية. لم تحرك به شيئاً، وبقيت بحيرات ذاته ساكنة لا تتأثر بكل العواصف التي هبّتْ فوقها، حرّك شفتيه قائلاً:

-كل عام وأنت بخير.

وبعد قبلة وكلمات مجاملة أيضاً تناسى الموضوع وسألها بهيبة الآباء:

- هل حضّرت دروسك جيداً..؟.

أجابته بحدة:

- والهدية..؟.

وكان الجواب جاهزاً، فقال بسخرية:

- إذا نجحتِ.

كادتْ أن تقول له (لكني كل عام أنجح) لكن إحساسها الأنثوي الوليد ردعها، وهمس لها بأنها لن تحرّك به شيئاً كالعادة، وستبقى البحيرات بداخله هادئة هدوء الموت رغم كل العواصف المتحرشة بها، فآثرت الصمت كأول مأثرة تتلقاها من نفس في طور التغير والتشكل، وستشحن فيما بعد بطاقات هائلة من والصمت والكبرياء.

في المدرسة..

همست لصديقة لها:

- اليوم عيد ميلادي.

أجابت الأخرى بتعجرف سيدة كبيرة:

- أنا مضى عيد ميلادي منذ شهور.

سألتها بفضول :

- و هل جلبوا لك هدية..؟.

- أخي، جلب لي حذاء، وأنت..؟.

زلزل السؤال فؤادها، وقالت بلهجة المتأكد:

- اليوم مساء.

بقيتْ طوال ساعاتها الأولى تحلم بهدية عيد الميلاد، وتحلم عند عودتها إلى البيت أن ترى هدية جلبها لها والديها. قبل نهاية يوم المدرسة اقترب منها زميل لها في الصف بحذر شديد وارتباك بدا واضحاً في مشيه وكلامه عندما حيّاها

بحركة من رأسه وتمتمات من شفتيه. قال لها بحياء شديد متعثراً بكلماته:

-كل .. عام وأنت .. بخير.

سألته بعينيها دهشة، فأجاب:

- أليس اليوم هو عيد ميلادك ..؟.

بصوت مندهش قالتْ:

- نعم، وما أدراك أنت..؟.

- أنت ذكرتي مرّة أمامي تاريخه، تفضلي.

أعطاها بطاقة صغيرة ، فيها صورة طفلة تحمل بيدها وردة بيضاء، فتحتها وقرأتْ بداخلها جملة واحدة فقط (مع أمنياتي لك بحياة سعيدة)، ووقّع أسفل العبارة بخط بدا الاضطراب به واضحاً وجلياً، نظرت نحوه، الحياء والدهشة يتصارعان على تضاريس وجهها الدقيق، وما زال هو يقاوم ارتباكه الواضح بحركات يديه ونظراته الحائرة بينها وبين البطاقة. مرّ وقت حتى انهارتْ الحواجز بينهما، فحدقا بعيون بعضهما البعض بكثير من الود والترقب والحذر، النظرات تتخبّط بسيل جارف من التساؤلات الكثيفة، وتحاول فتح طريق لها نحو الإجابات المبهمة، لأول مرّة تعرف لون عينيه، وشعرتْ بأنها تتلمس ذلك الدفء الذي ينبع من أعماقها، فتجد نفسها تعوم فوق أمواج بنية بفرح ونشوة. لم تجد غير الابتسام فابتسمتْ، ولم يجد هو غير الابتسام ففعل، تدفقت بداخلها أنهار من الحرارة كادت أن تنبثق من خديها المتوردين، وشيء لذيذ سار مع دمها في أنحاء جسدها الناهض، فصرخت له كل خلية فرحاً ونشوة، تراءى ثغر الحياة باسماً وقد أهدتها شعوراً لم تألفه من قبل ولا تدري إلى أين سيغدو بها في قادم

الأيام، ارتبكتْ عيناها من الخجل بعد تحديق طفيف بعينيه، وأصاب أعصابها ارتخاء كاد أن يوقع بها أرضاً، ولم تستطع الاستمرار في النظر نحوه فأطرقتْ بحياء شديد. تمالكت نفسها، وقبضت على البطاقة بإحكام، كثير من الفرح لم تألفه من قبل دار في رأسها، والموقف أصبح ثقيلاً على روحها الناهضة فقالتْ بصوت أنثوي رقيق:

- شكراً، شكراً لك.

في البيت..

بقيت طوال اليوم وحدها. لم تكلم أحداً، وأوهمتْ الجميع بأنها تدرس. عيناها تجريان فوق السطور السوداء فلا ترى فيها غير اللون البني الجذاب يسطع منه بريق ساحر، وعلى إحدى صفحات الكتاب كانت تعود بين الحين والآخر وتقرأ عبارة البطاقة مراراً، وتحدّق في التوقيع المضطرب ملياً، فيجتاح حواسها ذاك الشعور اللذيذ الذي شعرته اليوم في المدرسة، لم تحاول تفسير ه أو السؤال عنه، وبقي في داخلها إحساس مبهم تحتضنه داخل ثنايا نفسها بكثير من الود ، وتخبئه في أعماقها وكأنه قطعة منها، وتريده أن يبقى هناك دائماً وأبداً.

حلمت بالغد وبالمدرسة وبأصدقائها و.....بكل شيء فيها، وغَفَتْ فوق كتابها دون أن تسأل والديها حتى عن هدية عيد ميلادها.